

عود على أقنعة الحقيقة وأقنعة الخيال

جبرا ابراهيم جبرا

حقيقة لا مرأى فيها ، هي ان الفنان قائد الذوق بين الناس . قد لا يستجيب الناس الى الفنان بسرعة ، بل قد لا يستجيبون له طيلة حياته ، ولكنه رغم ذلك يبقى قائد الذوق ، ومغيره ، ومجدد الرؤيا بين الناس في كل مجتمع .

والفنان ، لذلك ، يلجئ على نفسه ان هو انصاع طويلا لذوق الناس — حتى وان يكن قد ساهم مع غيره في ايجاد هذا الذوق . اذا استمر الفنان في انتاج ما يتصور انه يروق للناس ، فقد تخلى عن حقه في الريادة الذهنية والنفسية ، لانه سيجد بعد قليل ان الناس قد تخلوا عنه ، فيحاول استرضاءهم . اي ان الفنان ، ازاء الجمهور ، في خطر دائم من التمويه على نفسه وعدم الاخلاص لابداعه الصارم . لان الجمهور ميل الى الملل السريع ، الى البحث عن اثارة متجددة . ولا سيما في عصرنا الراهن ، حيث تيسر المجلات الملونة اطلاق الناس على كل اتجاه فني ، وكل نزوة فنية ، في العالم كله .

فالفنان اذاً مجابه يجمهور ليس من السهل ارضاءه — وبخاصة اذا كان جمهورا مثقفا ، وهو الذي يهمننا في مجال الابداع — كما انه مجابه بالضرورة الذاتية التي تطالبه بالاخلاص لنفسه واصالته . وبين هذين الطرفين لن يستطيع البقاء من دون ان يتمزق ، الا اذا اثبت دائما ان خياله ليس في سبات ، وان تحفزه الاسلوبى ما زال قادرا على الاتيان بالسحر والاثارة والدهشة والافلاك . ان عليه ان يتساءل : « هل في ما انتج كشف جديد ؟ ام انني اكرر نفسي ؟ » وفي الوقت نفسه : « هل انني انتج ما اريد انا فعلا ان انتج ؟ »

هنا نأتي الى ما نسميه هذه الايام بالازمة . « الازمة » في الواقع من الكلمات التي يطيب للفنان والناقد معا تكرارها ، كلما جوبه احدهما بمشكلة تعبيرية او اجتماعية . لعل فيها ضربا من التغطية الذهنية اكثر مما فيها من تحديد للمشكلة نفسها . فالازمة هي الضيق بعد الفرج ، والمفروض فيها انها طارئة على حالة سابقة من الانبساط والرفاه الذهني او النفسي . فاذا قلنا ان هناك ازمة يعانها الفن في الوقت الحاضر ، بدا لنا كأنما الطبيعي هو ان يتمتع الفن بالرفاه والبجوحة ، ولكنه يتعرض احيانا للطوارئ المنغصة . الا ان ازمة الفنان ليست بالامر الطارئ على هذا النحو . انها تكاد تكون من لوازم ابداعه . ويكاد يكون من طبيعة الخلق ان يعاني الفنان توترا وقلقا وشدة : فيكون حينئذ في حالة من الوعي الحاد بموقفه الوسط المشدود بين متطلبات الجمهور من ناحية ومتطلبات ذهنه من ناحية اخرى .

والفنان الذي لا يحس هذا التوتر وهذه الشدة ، لن ينتج ، على الأرجح ، ما يستحق التأمل والبقاء . فالابداع منذ ان غدا شخصا وتعبيريا ، لا صنعة وتزويقا ، لم يكن يوما في مجبوحة نفسية او ذهنية . النتاج الفني هو تفريغ الشحنة الهائلة التي يوجدها السالب والموجب عند التقائهما : انه انفراج الازمة - الى حين . فالفنان يجب ان يبقى في قلب المعاناة ، عند ملتقى الاطراف المتناقضة ، ليبقى خلاقا . وهذا جزء من مأساته . ولكنه ايضا جزء من نشوته المتكررة التي لا اظن ان ثمة في الحياة نشوة تضاهيها ، مما يجعل حياته (حتى ولو خلت من « الاحداث ») اغنى واحفل من حياة البقية من الناس . فالفنان في عبور مستمر للتوترات وتغلب متجدد - وان يكن تغلبا غير تام - على نزوات القلق . ومن العبث لديه مطالبة الحياة بغير ذلك .

متى اذا يخفق الفنان في مسعاه ؟

انه يخفق حين يعجز عن عبور التوتر على غرار الخصاص ، حين يلجأ الى المبالاة ، حين يستمر في العمل ارضاء لما يظن انه اصبح سائدا بين الناس . في مثل هذه الحالة ، تكون « الازمة » قد قضت على الفنان ، بان تجره الى الطرف « الآخر » وتطيح به هناك .

وهذه ظاهرة نراها في بعض الفنانين ممن جعلوا يقاربون الخمسين من عمرهم . لقد ارعبهم سيل « التجديد » في الاساليب لدى الشباب الذين لم يبلغوا بعد حد الازمة الخلاقة الحقيقية ، والذين قد يستجيب لهم الجمهور لانهم مع « الموضة » ، دون ان يكونوا قد ساهموا بعد في توجيه الذوق الذي حققه فنانون آخرون في اقطار اخرى . ازاء هؤلاء الشباب ، قد يخطيء الفنانون الاكبر منهم سنا فهم دورهم القيادي الحقيقي ؛ وبدلا من ان ينتهي التوتر لديهم الى إطلاق شحنة الابداع المتجددة ، قد نراهم يحاولون مواكبة الوافدين الجدد ، استرضاء للجمهور ، واذا هم بالتالي يتساقطون كالجرحى في الطريق . لقد وقعوا ضحية الازمة .

اما الذين يقارعون الازمة على غرارهم الخصاص ، الذي هو البرق المتكرر في حياتهم الفنية المشحونة ، فهم الخلاقون الحقيقيون . هم المغيرون الحقيقيون للذوق ، والمجددون الدائمون لرؤيا الانسان .

كلما تمعنت في قصائد السياب الاخيرة ، اذ كان يرسلها اليّ تترى من فراش مرضه بالبصرة ، شعرت ان شاعرنا الجديد ، مهما اشتدت به المأساة ، انما هو شاعر الحياة . ونحسه بالحياة فيفيض من قصائده الى قرائه ، حافزا اياهم على الاستزادة من النبض العنيف اتجاه الموت . لن يستطيع الشاعر ان يتجاهل الموت كموضوع ، والشاعر الكبير ، بوجه خاص ، يتصف بجمل عواطف النقيضين ، الحب والكراهة ، للموت . غير انه لا يتخاذل انزاه . فهو اكبر واصلب وارحب منه . للشاعر المعاصر ما يبرر افكاره السوداء ، ولكن

شعره يهضمها ويحيلها الى قوة ودفع ، فتصبح في آخر المطاف خسارة للموت وسخرية منه . اقول هذا وانا احس بان شعري مليء بسود الافكار ، كأنا الحلركة النفسية قد فرضت على الشاعر . وانا لن آخذ هذه الحلركة على اي شاعر ، لانها كثيرا ما تكون ذلك الظلام المشحون الذي يتفجر فجأة عن فيض من النور والرؤيا . وما هذه الا احدى الصلات الخفية القائمة بين الشعر العظيم والمأساة التي ما نهايتها الا تطهير النفس واعادة الصحة اليها .

ايام كنا صغارا - قبل الحرب العالمية الثانية ، وحتى في اوائل الاربعينات - كانت الشعر لنا غناء وطربا . كنا نتصارع بابيات الشعر من خلال الريح ومن بين الاشجار ومن على القمم . كان الشعر ، ذلك الضرب من الشعر الرقيق الطروب ، ممكنا يومئذ . فالشعر صنو البراءة . انه صنو تجربة الفردوس ، لا تجربة الجحيم . اما في الجحيم (ولعلني هنا اتحدث كفلسطيني عرف النكبة) ، فالشعر صرير اسنان وصراخ اليم . الجحيم فلاة منبسطة يمشي المرء فيها الى ما لا نهاية دون ان يرى شيئا ، لا شجرة ولا طيرا . غربان تسف وتحلق وتختفي - احيانا . والسير وعمر ومستمر . والشعر صرير اسنان وقرح في القدمين . والمصيبة هي ان غير الشعر لا يستحق الكتابة . فحق النثر ، اذا لم يكن محملا بالمنطويات الشعرية ، فهو ثمرة باطلة .

وهكذا بلغنا نقطة ما عدنا نستمرى عندها الكلام الموشى سطحا ، الفارغ قلبا . وفي هذا بلغنا مرحلة تشبه مرحلة الذوق التي بلغتها اوربا في العشرينات الاولى من هذا القرن .

في دخيلة كل خلاق صراخ صامت . ليتني استطيع التعبير عن هذا الصراخ . انها مأساة الفنان (ولعلها سر قوته ايضا) هذه الاصوات الهوجاء التي تعصف في صدره ، في شرايينه ، ولا يستطيع ان يسمعها الاذان الا بعشر معشارها . من اين تجيء ، الى اين تنطلق ، من وما الذي تستهدفه ، سوى اللهم ذلك المبهم المستحيل الرائع الرهيب الذي يتعدى الحب والحقد ولهات التجربة التي تسطع كالرؤيا فجأة ثم تختفي ؟

في الحب المجنون بعض السر : في الحب الذي يعبث بالمنطق وحقائق العيش وروادع النفس . صراخ يبعث الشعر والموسيقى ، ولا يكف . جون كيتس يخاطب بلبلًا في ظلام الغاب ، والمتنبى يتحدث عن الحمام الورق في شعب بوان . انها رحلة الفنان في الغاب ، في شعب بوان . ولكنها ايضا صرخة في قاعة كبيرة مهجورة ، زرعت ارضها بعيون العشاق والموتى . لعل الصراخ غير انساني تماما ولا الهني تماما ، او لعله انساني والهي معا ، ولكن معرفة الجواب لن تكون استجابة للصراخ . على الفنان ان يحمل صراخه بين جنبيه ، ويبحث في واديه المعقود آجاما . ولن يخرج من الوادي الا لحظات ، يبلغ بها هاوية يرتد

عنها . او ان الهاوية تغريه بالسقوط والنهاية . ولكنه يرتد عنها ، عودة الى الاصوات التي لن يسمعها احد غيره ، الى العشق المضطرب ، المجنون ، لعله يخلق ، لعله يمسك بشيء منه في شبكة من الفاظه ، او تهاويله .

يقول ت. س. اليوت :

« من السخف ان يقال ان النقد هو من اجل « الخلق » ، او ان الخلق هو من اجل النقد . ومن السخف كذلك ان نزع ان ثمة عصورا للنقد وعصورا للخلق ، كأنا اذا القينا بانفسنا في ظلام فكري زاد املنا في العثور على الضياء الروحي . فكلما الاتجاهين في الحساسية يتكامل مع الآخر . ولما كانت الحساسية امرا نادرا ، غير شعبي ، ومرغوبا فيه ، حق لنا ان نتوقع ان يكون الناقد والفنان الخلاق في كثير من الاحيان الشخص نفسه » .

هذا الذي يرجوه او يتوقعه اليوت نراه في الآداب الغربية بكثرة . فالكثير من اعلام النقد في الادب الانكليزي مثلام من اعلام الشعر والنثر ايضا . فشيكسبير يعبر عن رأيه في الفن ، والشعر ، والمسرح في « هاملت » ببراعة توازي براعته الشعرية ؛ وفيليب سدني ، صاحب « الدفاع عن الشعر » ، شاعر اليزابيثي مبرز ؛ والكسندر بوب من اعظم شعراء القرن الثامن عشر ، وما زالت مقالاته الشعرية « في النقد » معلما من معالم النقد . جون كيتس ملأ رسائله آراء في النقد ، كل منها ، على ايجازه وسرعة كتابته ، ذرة صغيرة . ودراسة شلي في « الدفاع عن الشعر » تدل على حصافة وعمق وافلاطونية قد لا يتوقعها المرء من شاعر غنائي مثله ؛ وهكذا قل في كولريديج الذي جمع بين الشعر والنقد والفلسفة طيلة حياته ؛ وماثيو آرنولد ، وازرا باوند ، واليوت بالذات ، امثال ظاهرة على الجمع بين النقد والشعر - وانا لم اذكر الا المبرزين جدا . والادب الفرنسي بالطبع مليء بمثلة مشابهة ، من بودلير الى جان بول سارتر في السنين المائة الاخيرة .

وإذا ثمة صلة حقيقية بين الابداع والنقد في آداب الغرب ، لا بد انها موجودة في ادبنا ايضا . غير ان قدامى النقاد في الادب العربي لم يكونوا من الشعراء ، كما اتنا لا نعرف عن قدامى شعرائنا انهم خلفوا لنا نقدا (الا ما نستشفه من قصائدهم) . وهذا امر حري بالدراسة . ولكن ادبنا المعاصر ، لكثرة ما فيه من تجريب وبحث اسلوبي ، اخذ يتصف بهذه الظاهرة الغربية ، وجعلنا نرى من الشعراء والقصاصين من ينصرف الى النقد ايضا انصرافا جادا . اديبنا اليوم مضطر الى الخلق من ناحية ، الى الدفاع عما يخلق من ناحية اخرى - ولن يسعفه « النقاد » الا كاديميون الا فيما ندر ، لانهم على الاكثر متخلفون عن الكثرات او غير متعاطفين مع محاولاته . وهكذا اصبحت حاجة المبدع الى تبرير عمله فضيلة فكرية ، ينتعش بها الادب .

ولكن ، يجب الا نسرف في التفاؤل . فالناقد الجيد ما زال نادرا جدا . وما زالت محاولات الخلق اهم من محاولات التحديد والتقييم والغربة . واذا وجدنا ناقدا منقطعا الى النقد دون كتابة الشعر او القصة ، فلنا ان نهىء انفسنا عليه . فلعله يجعل من النقد ما يجب ان يكون دائما عن حق : عملية خلاقة .

ليس عجبيا ان يجعل شاعرنا القديم من الحب مستهلا لكل قصيدة ينظمها تقريبا . كأن الحب هو العاطفة العنيفة الواحدة التي مهما حركت منه الجواثس والنوازع تظل في منأى عن التحقيق جسديا فتبقى في الاوج من قوتها . او لعله لم يكن دائما يريد ان يحقق ذلك « الوصل » الذي يتحرق اليه . واذا تحقق الوصل ، فلبهرة وجيزة لكي يكون تحفيزا جديدا لمستحيل جديد : والمستحيل هو الذي يمتدب الشاعر ويستثيره بسحره وبعده . والمستحيل هو الذي يجعل الدوارس دروبا الى اللذة النفسية الجارحة التي تبكيه وتدر عليه اللفظ الجميل ، والصور العريضة . فالشاعر موزع بين التراب والهواء ، ولن يستطيع العيش في التراب وحده . وكلما تحرك شيطانه ، اراد الهواء ، اراد ذلك الفضاء الذي يملؤه الحب بالرؤى ، تراها العين وتعجز عنها اليد . وشهوة العين في الشاعر توازي شهوة البصيرة ، والخلق هو في اندماج الشهوتين . واذا ما بدأت عملية الخلق كان له فيما بعد ان يسيرها انى يشاء : الى الفخر ، الى المديح ، الى الرثاء ، الى الهجاء . فالشاعر فارس ادار ظهره الى القلعة ، لكي يبقى على شهوة متقدمة لمن فيها . كان عليه ان يعاني الفراق لكي يدمى قلبه وتستنزف مآقيه ، فتأتيه الكلمات . ولكأنني به لا يرى الجمال الحقيقي ولا يستشعره لحنا النشوة الا اذا استوحذ واستوحش . الرؤية الفعلية تضلله عن اسرار الفتنه ولن يستطيع تلمسها الا بالبصيرة ، الا تذكرا ، وتوقا ، لانها حينئذ تتكشف عن نفسها بالكنائيات والتشابه . تتكشف ، ثم تتمنع من جديد ، ثم تتكشف ، وهكذا يستمر الخلق الشعري في عصر يتم التحقيق الجسدي فيه بسهولة ، تفقد فكرة « الوصل » فعلها - او تهجم طاقاتها الخلاقة ، فيبحث الشاعر عن وسيلة اخرى غير الحب لايقاظها . بماذا ؟ ربما بالموسيقى ، ربما بالمخدرات . ربما بالسكر . ربما بالمغامرة على شفا الانتحار . ربما بذلك الشعر نفسه الذي اوجده الحب المستحيل فيما مضى .

لا احسب ان ثمة كاتباً الا ويمر في ازمة هي ازمة « لفظية » ، ازمة الكلمات . ففي اول عهده يرى الكلمات شابة نقية لم تتهرأ بعد بالاستعمال ، ولكن الكاتب الحساس قد يرى بعد مر السنين ان هذه الكلمات التي هي وسيلته الاولى والاخيرة اخذت تفقد نضارتها وطاقاتها ، وجعلت تتهرأ وتتهافت بين يديه . اغلب الظن ان النضج يفوق احيانا مقدر

المراء اللفظية ، الا اذا استطاع بالفعل ان ينمي الطاقة اللفظية مع نموه وتفكيره وتعبيره .
هل بدأنا نشك في ان الفاظنا اصابتها الوهن ، في حين ان تجربتنا اشتدت تأججا وعنفا ،
وكانت النتيجة قطيعة بين الاثنين ؟ ربما .

ونتيجة لذلك ، اذا استطاع المراء الاستمرار باستعمال هذه الالفاظ ، رغم ما حاق بها
على يديه ، فانه قد يجد انها أصبحت اوضح وابسط مما يقبل ويرضى به . الغريب ان
الانسان كلما كبر ، استهجن التعقيد والغموض والابهام ، وتوخى الوضوح والمباشرة ،
واحيانا البساطة . ولكن رغم ذلك فان الوضوح والمباشرة والبساطة تختلف لديه عما كان
يتوخاه منها في كتاباته الباكورة . فتصبح هذه (اي الوضوح والمباشرة والبساطة) وسيلة
لنوع من التركيز والتضمين والرمز . واذا بها تحقق ما يبدو عسيرا على الفهم لدى الغير
وبعيدا عن البساطة والمباشرة المتوخاة اصلا . وبعبارة اخرى ، يقع الكاتب ضحية
التناقض بين شيئين يتوخاهما في نفس الوقت . واذا عجز عن حل هذا التناقض ، فلعله
يرفض ان يكتب للمرة . وانا اعتقد ان اللامعقول الذي جعلنا نراه في بعض الكتابات ،
ومحاولات « الرواية الجديدة » ، كلاهما ضرب من السعي نحو هذا التناقض وازالته . فكأنما
الادب نفسه قد كبر ونضج ، بحيث ما عاد يأبه لاشكال الادب التقليدية التي تبدو اشبه
بكتابات الذين لم يتم نضجهم حضاريا . ولهذا ايضا قد يلجأ الكاتب الى نوع من الشعر
الجديد الذي يحقق له في اسطر قليلة ما كان يحتاج الى فصول في كتاباته السابقة .

يقولون : اذا عرف السبب بطل العجب .

ولكن اذا بطل فينا العجب (والعجيب قوة يقظة دافعة) ، فقدنا القدرة على الانتباه
الى ما في اشكال الكينونة الممكنة من رهبة ، او غموض ، او فتنة . فالعجب هو
إهداءنا الاولى .

واذا تلبد فينا حس العجب ، تلبدت فينا الرغبة في الفهم واستدرار روعة الحياة .
والخلاق هو الذي يبعثنا عن مثل هذا الخطر ، بتنشيط حس العجب - وبالتالي
تبعيد حس الحياة .

فالتكرار واللف والدوران حول ما قد تحقق ، دون النزوع الى التجديد المستمر ،
فيها تنعم مجال الرؤية وتقصر مداها ، وتأتينا بما هو اشبه بتراب قد لا يمنع عنا الحركة ،
ولكنه يمنع نفاذ البصر والتنفس الحر الطيب .

والمجدد الخلاق يحلو هذا التراب : اساليبه تأتي كالمطر على شوائب الجو ، فتعيد الينا
الشفافية ، والرؤية ، والاستجابة المنعشة لحسن الكون ، وحرارة التجربة . انها تجدد
تجربتنا على العجب .

والعجب يدفعنا الى البحث عن الاسباب .
ولا بد ان في الاسباب دائما ما سيدفعنا الى المزيد من العجب . فالبراءة ، في نهاية الامر ،
هي صنو الخلق الفني ، ومن ضاعت براءته ضاعت موهبته .

يتحدثون عن الغموض في الشعر الحديث ، كأنهم يعطونك قرشا لتعطيهم قدرا من
المعنى يتحلون به ، فيغضبون اذا وجدوا ان ما اشتروه لا يذوب في افواههم عن حلاوة .
انا لا افهم كلامهم عن الغموض .

فالحقيقة هي ان المطنن الاكبر في الشعر الحديث ليس غموضه . انه هذا الوضوح الصريح ،
هذا الاطناب في النص واقامة البديهة على البديهة واستنفار المبتذل بعد المبتذل . اذا استثنينا
اربعة او خمسة من شعرائنا اليوم ، فان معظم الآخرين ينهجون الطريق الى الوضوح العقيم
يوما بعد يوم ، ديوانا بعد ديوان ، فرحين بانفسهم . ولن يعدم اكثرهم « نقادا » يرون في
هذا الركام من موات الخيال معاني ثورية ومضامين وجودية وقضايا تعج بمعطيات الحياة ،
الى آخر ما هنالك من كلشيهات النقد التي سئمنها والتي يمكن اغداقها على اية قصيدة ، مهما
تكن ، اذا كان الناقد راضيا عن صاحبها ، دون ان يخسر او يكسب شيئا احد . وهكذا
ينافس « النقد » منقودهم في وفرة الهذر - وتبتلع الشعر دوامات التفاهة الفكرية .
والضعف الآخر في الشعر الحديث ، هو هذا الطول الذي لا يبرر في كثير من القصائد .
ما اخطر القصيدة الطويلة على صاحبها . ازاءها لسوف تتساءل : هل لدى الشاعر من الصور
والمعاني التي لم يسبقه اليها احد ما يكفي لطولها ؟ اذا لم تكن كل قصيدة مغامرة جديدة
في عالم من الصور والمعاني يكتشفها الشاعر لنا لأول مرة ، اذا لم تكن القصيدة مغامرة بكرة لم
تعرف الا شاعرنا ، فمن العبث وضياح الوقت الوقوف عندها . فاذا كانت القصيدة ايضا
طويلة ، اشتدت مطالبتنا بالمغامرة البارعة . فليأرف الشاعر بنفسه وبنا . اذا ما عاد من
الفوضى (ان كان ثمة غوص) ، فاننا لن نرضى له بان يرمي في وجوهنا بكل ما جمع من
اصداق ، وان تكن براقا . لان معظمها فارغ ، كما سيخبره غواصو الخليج .

فاذا كان لا بد للقصيدة من طول ، فعليها ان تكون منظومة كالقعد الثمين : كل
لؤلؤة فيه حقيقية ، جاءت من اعماق الخيلة . اما عقود الخرز ، فليعطها اصحابها للذين
يخشون الغموض ، ويرون في كل زجاجة ملونة معاني ملهمة .
الغموض ؟ اهلا به ، اذا كان في جمال الآلىء - وغموضها .

ثمة تيارات جديدة في الفكر العربي ، تيارات عنيفة متضاربة تحمل جيلنا في كل اتجاه ،
ترفعه وتخفضه ، تدفعه في شتى دروب الفكر والمحاولة ، وترغمه على التأمل من جديد في

ذاته وظروفه ومجتمعه . لو لم تكن هناك تيارات جديدة ، لما كان العالم العربي على ما هو عليه من غليان ، واضطراب ، وتطلع ، ونزق ، وثورة . ومن العبث ، ونكران الواقع ، ان ندعي انها تيارات اجنبية مترجمة الى العربية ، مهما كان للفكر الاجنبي من اثر فيها . يكفي ان تتلبس التيارات الفكرية الخارجية لبوس اللغة العربية لتضحى بعد مدة جزءا منا ، لتفاعلها بترائنا وعاداتنا الفكرية ، بسكونيتنا وديناميتنا معا . القليلون منا فقط يفهمون التيارات الاجنبية على حقيقتها بحيث يصبحون جزءا منها . غير اننا نفهمها الى الحد الذي يجعلها روافد تضاف الى الروافد الاخرى الكثيرة ، التي تصب في حياتنا العقلية والنفسية . نحن اليوم ما عادت تفصلنا الصحارى عن البحار ، والبحار عن العوالم الاخرى ، وما الزعازع التي تعتور حياتنا الا الدليل على اننا بفجاءة تاريخية اصبحنا جزءا من حضارة عصرنا بعد انقطاع عن الحضارة دام عدة قرون . لن يعني ذلك اننا اهدأ بالاً ، او اننا نسعى الى الطمأنينة والاستقرار والدعة عن طريق التيارات الفكرية . فالتيار يعني الحركة ، بل الحركة الجارفة ، واذا كان لنا في كل تيار شقاء كثير ، فان لنا فيه ايضا ، ولو لبعض الوقت ، سعادة المشاركة . والمشاركة هي يقظة الحس - بل الحواس كلها ، ويقظة الوعي . لقد القينا بانفسنا في بحر مغتلم ونحن لم نتقن السباحة بعد . ولا ريب ان بعضنا سيفرق ، ولكن بعضنا سيتعلم مقارعة الموج والتغلب عليه .

وانا لا اقول هذا لانني متفائل او متشائم بما يحدث اليوم . قد اغضب على معظمه ، قد ارفض الكثير منه ، قد اندب حالنا في بعض نواحيه . ولكن الواقع اهم من كل هذا . ونحن في وسط التفاعل من هذه التيارات المتناقضة : وفيها من التحدي ما يجب ان نثبت له ، والا انكفأنا وعدنا الى عصر جديد من الظلام .

اما كيف تتفاعل التيارات ، فليس من اليسير ان نحدد ذلك بايجاز ، سوى ان نقول انها هي نفسها نتيجة لتفاعلات عنيفة ادت اليها تجربتنا التاريخية كأمة عانت ما عانت من هجمة الذهن قرونا طويلا . فنحن في كثير من الاحيان مدفوعون الى البحث عن الفكر التي تجسد طبيعة تجربتنا من ناحية ، وتمنحنا قوة دافعة نحو تجربة جديدة من ناحية اخرى . ولما كان عدد المثقفين ما زال صغيرا بالنسبة الى مجموعنا كشعب يبلغ تعدادة ثمانين مليون نسمة ، فان التيارات الفكرية ، على شتاتها ، تدفع بهذه الفئة القليلة المهمة الى الاحتكاك فيما بينها احتكاكا عنيفا ، وبذا تتسلسل التفاعلات الفكرية في اتجاه خلق حضارتنا العربية الجديدة .

مسكين الفكر العربي: يرفع عقيرته بالاحتجاج فتنهال عليه السباب من كل صوب (وعلى الاغلب من « المثقفين » الآخرين) ، ثم يشهر به ، وقد تستعدى السلطة عليه ، الى ان

يا كل هواء ويسكت . واذا ما سكت ليحفظ رأسه من هوج الرياح ، انهالت عليه السباب مرة اخرى : جبان ، انتهازي ، يستغل ثقافته للوجاهة ، لا يجعل من نفسه رأس الرمح في وجه المستبدين . اذا ما استغل غيره امورا اخرى اقل شرعية بكثير من الفكر من اجل الوجاهة ، قلما تجد فارسا يتهمه بالجبن والانتهازية . اما المفكر فيتعرض دائما لمثل هذه التهم ، رغم انني لا اعرف كيف « يستغل » اي مفكر ثقافته من اجل الوجاهة او المغم .

غير ان المفكر ، رغم ذلك ، يبقى مسؤولا تجاه نفسه وانسانيته ، كما هو مسؤول تجاه مجتمعه في كل الاحوال اذا كان له حق الطليعية الفكرية فيه ، ولا سيما اذا استبد بالمجتمع مستبد ، لانه اللسان الناطق عنه . واذا ما وجد المفكر انه عاجز عن القيام بمسؤوليته ، لانه يرفض النفاق والمبالاة ، ولان وسائل الاستبداد لا تقتصر على الحظر ومنع النشر ، بل تتعدى ذلك الى تسليط « مفكرين » آخرين على المفكر لتحطيمه ، كما نرى في دول الحكم المطلق ، فانه يصمت ، والصمت اكبر اتهام للمجتمع ولمن يستبد به . الصمت هو وسيلة المفكر الاخيرة في رفع اصبع الاتهام . والمجتمع يكون ايضا مسؤولا عن مثل هذا الصمت ، لانه خذل المفكر ، خذل ذلك الذي هو في الواقع ضمير المجتمع . في المجتمع الليبرالي فقط يتسنى للمفكر ان يتكلم جهرا ، لان فيه ما يضمن له حرية الرأي وحرية القول . أما ان يرضى المجتمع بان تنتزع منه هذه الحرية ، مهما تكن حجته في ذلك ، ويطالب المفكر بما لا يطالب به نفسه ، فلفو باطل .

ولكن كلمة « مفكر » نفسها كلمة مطاطة لا يمكننا تحديد هوية صاحبها تحديدا واضحا هل كل من كان مثقفا « مفكر » عن حق ؟ هل نستطيع القول ان اساتذتنا الجامعيين كلهم مفكرون ؟ طبعا لا . فالمثقفون الذين ما زالوا يغيرون المجتمع العربي ، ليسوا بالضرورة كلهم مفكرين بمعنى « فلاسفة » القرن الثامن عشر في فرنسا . فالمفكرون الذين هم من هذا القبيل لدينا ما زالوا قلة ضئيلة ، وما زالت الغوغائية في بلادنا اكبر مفجم لهم المفكر الحقيقي لدينا مهدد بتهمة الزندقة حالما يرى رأيا غير الذي درجنا عليه ، او غير الذي يريده اهل السلطة المؤقتة . وهذه مأساته : انه جزء هام من مجتمع سريع التطور ولكن في المجتمع قوى صماء ما زالت تستطيع فرض الصمت عليه . فمعركة المفكر اذا ليست مع المستبدين من الحكام فحسب . انها مع المجتمع نفسه ، بكل ما فيه من انتهازية وضيق صدر ، واستعداد للبحث عن كبش ضحية .

ليس من السهل تفسير المؤثرات وكيفية فعلها في الاساليب والمحتويات . اما انها ليست اعتبارية ، فامر لا شك فيه . فهي دائما تأتي استجابة لحاجة ، والحاجة يخلقها المناسبات

الحضاري . وقد قلت في مكان آخر ان المؤثرات كثيرا ما تبلغنا متأخرة عشرين او ثلاثين سنة ، فتحديث ما يشبه الانفجار المؤخر . فاذا صرفنا النظر عن التيارات السياسية ، وجدنا ان العالم العربي في السنين العشرين الاخيرة يمر ، ثقافيا ، بسلسلة الانفجارات السريعة التي امتازت بها الثقافة الاوربية بين ١٩١٠ و ١٩٣٥ - من « ما بعد الانطباعيين » الى الماركسيين والواقعيين الاجتماعيين . وانا ارى ان الفترة الاوربية الواقعة بين ١٩١٠ و ١٩٣٥ هي من اغنى الفترات واغزرها خلقا في تاريخ الفنون . فحتى لو جئنا بقائمة موجزة للحركات والاسماء التي ازدهرت في هذا الرده القصير من الزمن واوجدت وجهة جديدة لسير الفكر والذوق في العالم ، لكنت قائمة مدهشة . فضلا عن تنمية السينما والمونتاج الفلمي - مما كان له اثر في معظم الفنون في العشرينات - فاذا شُبد التكعيبية ، والمستقبلية ، والدوامية ، والتعبيرية ، والسريالية ، والتجريدية ، ونجد كذلك بيكاسو ، وكندنسكي ، وبراك ، وسترافنسكي ، وفرويد ، وبريتون ، وابولينير ، وتي . اي . هيوم ، وكافكا ، وجيمز جويس ، ومارسيل بروست ، ود . ه . لورنس ، وازرا باوند ، وت . س . اليوت - وما هؤلاء الا القليل . هذه الفترة هي التي تجاوزت فيها فكرة الثقافة الانسانية الحدود القومية : فالروافد قد تصب في التيار القومي الكبير ، غير انها قد تأتي من افريقيا ، او اليابان ، او مصر القديمة ، او بابل : قد تأتي من المانيا او روسيا او فرنسا او الاقطار العربية ، او اي قطر آخر في العالم .

والمثقفون العرب في السنوات الاخيرة جعلوا يسرون في مثل هذا الاتجاه بعينه ، غير انه كان عليهم ، اذ ادركوا الاتجاه متأخرين ، ان يضغطوا تجارب السنين الكثيرة في ايام قليلة . ولذا جعلنا نرى فيضا من الاساليب المختلفة في الفن والادب يأتينا دفعة واحدة من التعاقب الزمني الذي ظهرت فيه هذه الاساليب في الاصل .

فينا اكثر من هوس . في حياتنا من الضغط والدفع والجذب ما يجعلنا نقع في هذا الهوس وذاك للبقاء على الذات الحقيقية فينا ازاء هذا الهجوم المستمر على كياننا ذهنيا ، وحسيا ، وحياتيا . ولكن الهوس - بما في الكلمة من معنى الانحراف عن السوي - ليس من شيمة كل انسان ، ولا هو دائما بالخير او الشر . والاهواس تتفاوت نوعا وحدة من الفنون في الطرف الواحد الى العبقورية في الطرف الآخر . وحظنا منها اشبه بحظ الفرد من طامة الخلق . ومنها ما هو استزادة من الحياة ومنها ما هو محق لها . والحد الفاصل بين هذه وتلك قد لا يزيد عن عرض شعرة .

والحب بكل انواعه هو الهوس الاكبر لدى الخلائق : به يدركون لا الذات فحسب ، بل كل ما هو خارج عن الذات . فالحب ، كما تقول الروائية آيريس ميردوك ، « هو ذلك

التبين العسير من ان ثمة شيئا غير الذات حقيقيا « به يدرك الحلاق الافراد الآخرين والاشياء الاخرى ، اذ يوجد الحب امتدادا بين الذات وبين الافراد والاشياء الحقيقية خارجها . انه بعض الطاقة الايجابية التي بها يحاول التغلب على الضغط والدفع والجذب ، الممثلة للناحية المظلمة التي تهدد الانسان .

وحق تلك الموضوعية اللاعاطفية التي نراها في التركيز على الاشياء والافراد في شخص رجل كروكنتان في « الغثيان » لسارتر ، انما هي قناع من اقنعة الحب ، مهما اصاب صاحبها احيانا بالغثيان . فهذا التعلق باصغر التوافه مما يعرض له ، وحيانا باقذرها ، انما هو جسر « الحب - الهوس » . وبقدر ما يستطيع الحب احيانا تضبيب الرؤيا في الحواشي للتركيز على تفصيل يكاد يكون باهرا في مكان ما في الوسط ، هكذا يستطيع ان يوضح الحواشي والاطراف لحد انعدام المنظور والتسلسل المنطقي .

ولكن الحق ارضا قد يكون هوسا دافعا الى ضرب من الخلق . غير انه هوس ازام الحياة يمنع الذات عن الكشف ، عن ايجاد الصلة بين المدرك والمدرك . وبينما هوس الحب قد يصل الى غضب ربما بلغ احيانا حد اليأس ، كحب الانبياء الرهيب ، قد يتقنع الحقن طلبا للآخرين بوجوه الحب وينطق بالسنة مستعارة ، لينضم اخيرا الى الضغوط العمياء التي تطلب الحق ، وتفرض المزيد من الظلام .

رأيتني في مآدب كمأدبة افلاطون
حيث الرأي مجتث ، واللسان لا يعقله
الا عقل ومنطق . والمشاركون
في الوليمة يبحثون بين اركان الارض الاربعة
وبين افلاك الفضاء ، لا ينخشون
طفاة تسلحوا بعبارات جاهزة
يلوتحون بها فوق رؤوس المتحدثين .
في مآدب كهذه سقراط قد ينمو
او ارسطو او ابن رشد ،
ولكن رأيت الطفاة يندفعون مقمقين
الى قاعة الجدل ، فيقلبون المائدة ،
ويغرقون الرأي الطليق في النهيق .
فيسكت الباحثون ، ويجرع سقراط السم ،
وتنتشر الغربان في السماء وفي الارض الضفادع .